اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

التاريخ السياسي
للدولة الخوارزمية

تأليف

دكتورة عفاف سيد صبرة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر
دار الكتاب الجامعي
٨ شارع سليمان الحلبي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبعه وسار على نهجه وسنته الى يوم الدين • وبعد ••

يسرني أن أقدم للمكتبة التاريخية كتابا يدور حول التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية •

والحقيقة أن ما دفعني لدراسة هذا الموضوع هو اهتمامي الكبير ، وميلي لدراسة الدويلات الاسلامية التي ظهرت في المشرق على عهد الخلافة العباسية •

فلقد شهد المشرق الاسلامي ظهور دويلات كثيرة استقلت عن الخلافة العباسية منذ فجر تاريخها ، بدءا بالدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م وتتالت بعدها دويلات عديدة الا أنها اختلفت في علاقاتها بالخلافة العباسية ما بين دولة مستقلة استقلالا تاما ، ودولة مستقلة استقلالا اسميا •

ولقد لعبت دويلات المشرق الاسلامي دورا كبيرا ورئيسيا بوصفها دويلات حدود أو أطراف ، حيث جاورت معظم هذه الدويلات أقوام وثنيين ، لذا فقد كان لهذه الدويلات شرف نشر الاسلام بين هذه الأقوام التركية والفارسية والهندية • ولقد اتضح في هذه المنطقة غلبة العنصرين الفارسي والتركي وكانت بصفات هذين الشعبين قوية بطبورة كبيرة في تحديد مسارات هذه الدول •

ولقد كانت الدولة الخوارزمية احدى هذه الدويلات التى نشأت على الثغر التركى فى مواجهة مع الأتراك الوننيين فى منطقة خوارزم الذى يحده من الغرب بلاد الترك الغربية ومن الجنوب خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضا •

لذلك لعب حكام هذه المنطقة دورا هاما فى التاريخ الاسلامى لم يظهر ويتضح الا عند ظهور دولة السلاجقة • والحقيقة أن المسلمين الأوائل اهتموا بفتح هذه المنطقة من العالم منذ فجر حركة الفتوحات الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، وخلال العهد الأموى الذى شهد تدفق السيل الاسلامى الى هذه المناطق بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى •

ويرجع تأسيس الدولة الخوارزمية كدولة ذات مدلول سياسى — كما ذكرت — مرتبطا بالسلاجقة ، ويعتبر أنوشتكين هو المؤسس الأول • وأعقبه ابنه آتسز الذى وطد أركان هذه الدولة وبدأ منذ عهده الصراع السياسى مع الدولة السلجوقية فى فارس خاصة على عصر السلطان سنجر •

ولقد توالى الحكام من سلالة آتسز على حكم الدولة الخوارزمية التى بدأت تتسع رويدا رويدا على حساب جيرانها ، وذاع صيتها ، وبدأت تظهر بكيان سياسى خاص • ووالت هجماتها على جيرانها من دولة الأتراك القراخطائيين • والغوريين وتأرجحت علاقاتها بالخلافة العباسية طبقا للوضع السياسى القائم •

والحقيقة ان ظهور الدولة الخوارزمية يعتبر تأكيدا للعنصر التركى وتوطيدا له فى حكم أجزاء كثيرة من العالم الاسلامى • خاصة وان هذه الدولة ليست هى الدولة الاسلامية الأولى التى ظهرت فى العالم الاسلامى وانما سبقتها دويلات مثل الدولتين السامانية والغزنوية • حتى الخوارزميين ورثوا كثيرا من ممتلكات هاتين الدولتين •

كما أن الدور السياسى الذى لعبته هذه القوة السياسية فى هذه المنطقة كان دافعا لى على الاهتمام بالتأريخ لها ، لأن ما كتب باللغة العربية عن هذه المنطقة وعن هذه الدولة تفصيليا لا يتعدى أن يكون شذرات فقط ، اللهم ما كتبه الأستاذ حافظ حمدى عن الدولة الخوارزمية والمغول ، والشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى وما كتبه نافع العبود فى رسالة للماجستير عن الدولة الخوارزمية ، وكذلك كتاب الدكتور / سعد بن حذيفة الغامدى عن أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق ، فهذه هى تقريبا المراجع الحديثة التى تخصصت فى دراسة الدولة الخوارزمية ، لذلك كان لزاما أن نعطى هذه الدولة حقها فى الدراسة ، خاصة وان دورها السياسى ترك تأثيرا بعيدا على جميع مناطق المشرق .

ولقد آثرت أن أجعل دراستى تهتم اهتماما كبيرا بأهمية عنصر الأتراك فى العالم الاسلامى ، ودورهم السياسى ، وان أبين تاريخ خوارزم من البداية منذ وصول الاسلام الى هذه الأصقاع ، كما كان اهتمامى كبيرا بالعلاقات السياسية التى ربطت هذه الدولة مع جيرانها والحروب التى خاضتها وأثرها فى اتساع وانكماش هذه الدولة .

ومن أهم النقاط التى برزت فى هذه الدراسة مدى العلاقة التى ربطت الدولة الخوارزمية خلال حكم سلاطينها المختلفين مع الخلافة العباسية ، ودور الخلافة العباسية فى هذه الآونة فى التصدى للأحداث الجارية ، حتى فقدت الخلافة نفوذها فى العراق العجمى وبلاد الجبل والحقيقة ان هذه الدولة بدأت تتبلور بعد سقوط آخر سلاطين سلاجقة فارس وهو السلطان طغرل حيث ورثت الدولة الخوارزمية السلطان السياسى للدولة السلجوقية فى هذه المنطقة ، خاصة بعد قضائها على القراخطائيين وعلى دولة الغور التى نافستها السلطان السياسى خلال هذه الفترة .

ولقد كان لموقع هذه الدولة الهام أكبر الأثر فى تلقيها الضربات من القوات الغازية التى بدأت تغير على هذه المنطقة من العالم ، وأقصد بهم قبائل المغول الذين خرجوا من مواطنهم فى منغوليا ، وبدءوا فى الاغارة على الأقاليم المجاورة ، فنجحوا فى سحق قوى الأتراك القراخطائيين ، ثم بدءوا يدقون أبواب الدولة الخوارزمية ، حتى ان السلطان علاء الدين خوارزمشاه لعب دورا كبيرا فى كونه أول قوة اسلامية تتصدى لهذا الغزو ، حتى انتهى الأمر بموته ، وقيام ابنه جلال الدين بمكيرتى بتحمل تبعة الجهاد الاسلامى ضد هؤلاء المغول .

ولقد أسهبنا وقدمنا للدور الكبير الذي قام به جلال الدين وانحياز قواه على يد المغول ثم هروبه الى بلاد الهند ، الا أنه ما لبث أن عاد وكون جيشه واستولى على معظم ممتلكاته فى وقت انشغال دولة المغول بوفاة زعيمها جنكيزخان .

وقام خلال هذه الفترة بتوسيع بلاده الا أنه اصطدم خلال هذه الفترة بقوى سياسية كبيرة ممثلة فى الدولة الأيوبية التى كانت لها أتابكيات كثيرة فى هذه المناطق ، وكذلك بدولة سلاجقة الروم ، ودولة الكرج ومع شيوخ الباطنية الاسماعيلية .

وفعلا نجح جلال الدين فى التصدي لجميع هذه القوى فسحق قوى السلاجقة ، واستولى على الأتابكيات الأيوبية ، وسيطر على بلاد الكرج وهاجم معظم القلاع الاسماعيلية .

ومن هنا نرى أن وجود جلال الدين فى هذه المنطقة وأثناء الغزو المغولى كان كما ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى مثل سد بأجوج ومأجوج فقد كان الحائط النحاسى الذى تلقى الضربات المغولية وحمى الخلافة العباسية من خطر أصبح وشيكا .

ورغم هذه الجهود الا أن جلال الدين انتهى وقتل بعد هزيمته المتكررة على أيدى المغول الذين توحدت قواتهم تحت زعامة الخان

الجـــديد أوكتاى ، فانتهى بذلك جـــلال الدين واختفى من المســـرح السياسي •

ورغم ذلك فان الجنود الخورازميين كان يحدوهم الأمل فى تكوين وطن لهم تحت قيادات جديدة من رجال الجيش الخوارزمى فانساحوا فى الأرض يعرضون خدماتهم على الأيوبيين خاصة الصالح نجم الدين الذى استعان بهم فى توطيد ملكه ، كما كان لهم دور فى دخول القدس بعد أن حاول الصليبيون استعادته ، ومع كل هذه الأعمال الايجابية الا أن هؤلاء الخوارزمية من الممكن أن نعتبرهم من العناصر الهدامة •

فقد استرسل معظم المؤرخين فى وصفهم بأنهم كانوا مصدر دمار وخراب وسفك للدماء وهتك للأعراض اينما حلوا ، كما أنه يجب علينا أن نضيف الى سلبياتهم انهم بصراعاتهم السياسية فى مواطنهم فتحوا الطريق فعلا أمام المغول للانتصار عليهم حتى تحقق حلم المغول فى اسقاط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ •

ولا ننسى فى هـــذه العجالة أن نقول : أن هؤلاء الخوارزميين شاركوا فى الفوضى السياسية التى سادت العالم الاسلامى فى هذه الآونة فقد شاركوا فى الصراع بين أبناء البيت الأيوبى ، هذا الصراع الذى لم يكن له نتيجة الا توسع الصليبيين على حسابهم وتكرار حملاتهم على بلاد الاسلام وفتح الطريق أمام المغول ، وقد كان من الممكن أن تتحد القوى الاسلامية جميعها لاخراج الصليبيين من أراضيهم بدلا من التحالف معهم ، أو التجهيز لوقف الزحف المغولى الذى استولى على معظم الأراضى الشرقية وعلى ممتلكات الخوارزميين فى أراضى الكرج وقضى على سلطان سلاجقة الروم لتضيع هذه الممالك الاسلامية الهامة التى لعبت دورا كبيرا طوال التاريخ فى دفع القوى النصرانية والوثنية عن الأراضى الاسلامية •

وأخيرا ليكن لنا من الماضى عبره ، نعتبر بها فى تاريخنا المعاصر ، وحتى يعلم الأبناء أخطـاء الآباء ويتدارسـوها ويتجنبوها ، ولتتعلم الدول والشعوب دروسا من الماضى علها تفيق من سـباتها وتعلم أن الوحدة الاسلامية هى الأساس الأول فى قهر العدوان الموجه ضـدنا من القوى الاسـتعمارية الدولية • وعلينا أن نذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين • وادعوا الله سـبحانه وتعالى أن يلقى هـذا العمل العلمى المتواضع قبولا ، فان اصبت فمن الله سبحانه وتعالى وان أخطأت فهذه هى سمة البشر •• والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل •

وصدق الله العظيم حيث يقول :

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنو ربنا انك رءوف رحيم » •

المؤلفـة

د / عفاف سـيد صبره

مدينة نصر ١٤٠٨هـ

١٩٨٧م

الفصل الأول

التطور السياسى لمدينة خوارزم

حتى العصر السلجوقى

خوارزم اسم لناحية كبيرة قصبتها الجرجانية ، كان أهلها يسمونها كركانج وهى ولاية متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة[1] .

ويذكر ابن الكلبى ان اسحق بن ابراهيم الخليل ، ولد الخزر والبزر والبرسل ، وخوارزم ، وفيل[2] .

وهناك أقوال أخرى حول أصل تسمية هذه المنطقة وهو انه كان لاقليم خوارزم فى صدر العصور الوسطى قصبتان أولاهما فى الجانب الغربى أى الفارسى من نهر جيحون تسمى الجرجانية والأخرى فى الجانب الشرقى — أى التركى — من النهر يقال لها كاث .

ومدينة كاث مازالت قائمة الا أن مدينة العصور الوسطى ربما كانت تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقى البلدة الحديثة وكان لكاث فى الأزمنة القديمة قهندز « قلعة » فخر بها النهر وأتى عليها وكان الجامع والحبس على ظهر القهندز ، وقد أتى فيضان النهر على هذه الأجزاء ،

---

(١) ابن عبد الحق البغدادى « مراصد الاطلاع عن أسماء الأمكنة والبقاع » جـ ١ ، ص ٤٨٧ .

(٢) ياقوت الحموى « معجم البلدان » جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .
والمقصود بالفيل مدينة سمرقند . انظر :
البلاذرى « فتوح البلدان » جـ ٣ ، ص ٥١٨ .

فلم يبق منها رسما ولا طللا حتى كتب ابن حوقل ، فابتنى الناس مدينة جديدة الى الشرق من الأولى على مسافة من نهر جيحون تقيها عواقب طغيانه[٣] .

أما قصبة خوارزم الثانية التى أصبحت بعد سقوط كاث أولى مدن الاقليم ، فكانت الجرجانية وهى مدينة عظيمة مشهورة على شـــاطىء جيحون من امهات المدن جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات .

ويذكر ياقوت الحموى رواية أخرى وهى أن أحد الملوك القدماء غضب على أربعمائة من أهل مملكته ، وخاصة حاشيته فأمر بنفيهم الى موضع منقطع عن العمارات بحيث يكـــون بينهم وبين العمـــائر ، مائة فرســـخ[٤] ، فلم يجدوا على هذه الضفة الى موضع مدينة كاث وهى احدى مدن خوارزم ، فجاءوا بهم الى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا ، فلما كان بعد مدة جرى ذكرهم على بال الملك ، فأمر قوما بكشف خبرهم ، فجاءوا فوجدهم قد بنوا أكواخا ، ووجدوهم يصيدون الســـمك وبه يتقوتون ، واذا حولهم حطب كثير ، فقالوا لهم : كيف حالكم فقالوا عندنا هذا اللحم ، وأشاروا الى السمك ، وعندنا هذ الحطب ، فنحن نشوى هذا بهذا ، ونتقوت به ، فرجعوا الى الملك ، وأخبروه فسمى بذلك الموضع خوارزم ، لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم فصـــار خوارزم[٥] .

وقد اتفق الجغرافيون المسلمون فى تحديدهم لاقليـــم خوارزم فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية ، ومن الجنوب خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضا[٦] .

---

(٣) لى سترانج : « بلدان الخلافة الشرقية » ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٤) الفرسخ يساوى ثلاثة اميال .
(٥) ياقوت : « معجم البلدان » ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٦) الاصطخرى : « المسالك والممالك » ، ص ٢٩٩ .
ابن حوقل : « صورة الأرض » ، ص ٤٧٧ .

ويقع اقليم خوارزم فى وقتنا الحاضر ضمن الاتحاد السوفيتى ووزعت بين جمهوريتين هما أوزبكستان وتركمانستان السوفيتيين وذلك بعد غزو الروس لها وخلعهم أميرها خان خيوه السيد عبد الله خان بهادر سنة ١٩٢٤ م[٧] .

ان دراستنا للتطور التاريخى لمنطقة خوارزم يدفعنا الى الدخول فى حركة الفتوحات الاسلامية التى انبعثت من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدثت غزوتى مؤسة وتبوك اللتان كانتا بداية على الطريق ، ثم اكتمل نموها ونضجها بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقيام الخلفاء الراشدين بأمر الأمة الاسلامية .

وتعددت ميادين الفتح الاسلامى فى الشمال والجنوب والشرق ، وحققت انتصارات ضخمة أذلت بها دولتى الفرس والروم فسقطت الأولى ، وانحسرت الثانية ، وبلغت جذوة الفتوح الاسلامية ذروتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والمعروف أنه بعد سقوط المدائن ونهاوند أن المقاومة الفارسية تركزت حول كسرى يزدجرد ، الذى فر من بلاده ليجمع قواته لمهاجمة المسلمين الذين ظلت جنودهم تتعقبه تريد أن تنال منه[٨] .

معنى هذا أن المسلمين نجحوا فى الاستيلاء على الأقاليم الفارسية ، فتوجهوا صوب مدن خراسان ، وكان على قيادة الجيش الاسلامى الأحنف ابن قيس ، وبعدها أصبحوا وجها لوجه مع العناصر التى تعيش فيما وراء النهر ومعظمها عناصر تركية ، وقد كتب الأحنف بن قيس الى عمر

---

(٧) بارانسكى : « جغرافية الاتحاد السوفيتى » ، ص ٣٢٥ — ٣٣٠ .

(٨) شكرى فيصل : « حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول » ، ص ٢٠٤ .

يخبره بفتح خراسان، فقال « لوددت أنى لم أكن بعثت اليها جندا ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر فقال على ولم يا أمير المؤمنين فقال لأن أهلها سينفضون فيها ثلاث مرات فيجتاحون فى التالثة فكان أن يكون ذلك بأهلها أحب الى أن يكون بالمسلمين »[٩] . ويقال بأنه لما بلغ عمر بن الخطاب غلبه الأحنف بن قيس على المروتين[١٠] وبلخ كتب الى الأحنف ، « أما بعد فلا تجوزن النهر ، واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر ، واياكم أن تعبروا فتفضوا »[١١] .

ولما بلغ الأحنف عبور خاقان الصغد نهر بلخ ، مددا ليزدجرد جمع جنده ، وقال انكم قليل ، وان عدوكم كثير ، فلا يهولنكم ، « فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »[١٢] ارتحلوا من مكانكم هذا فاستتروا الى هذا الجبل ، فاجعلوه فى ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم ، وقاتلوهم من وجه واحد ففعلوا ، وأقبل الترك حتى نزلوا بهم ، وكان من عادة الترك أن لا يخرجوا حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كلهم يضرب طبلة ثم يخرجون بعد خروج الثالث، فلما كان وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبلة ، ثم وقف من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الأحنف فقتله ، وخرج آخر من الترك ففعل مثل صاحبه الأول فحمل عليه الأحنف فقتله ، ثم خرج ثالث فحمل عليه الأحنف فقتله ثم انصرف الأحنف الى معسكره دون أن يعلم أحد بذلك ، فخرج الأتراك بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مقتلين فتشاءم خاقان وتطير وقال قد طال مقامنا ، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط ، ما لنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا .

---

(٩) الطبرى : « تاريخ الرسل والملوك » ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .
(١٠) مرو الروذ ومرو الشاهجان .
(١١) الطبرى : نفسه .
(١٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

وفى عهد عثمان بن عفان توجه الأحنف بن قيس الى طخارستان فتح الطالقان ، صلحا ، وسار الى بلخ ، فصالحه أهلها ثم سار الى خوارزم، وعبر نهر جيحون فصالحه أهالى ما وراء النهر[١٤] .

ويورد البلاذرى روايات متعددة عن عبور العرب النهر فيقـــول ان عبد الله بن عامر عبر النهر وأحرم لله شكرا ، ويضيف قائلا أن الحكم بن عمرو الغفارى هو أول من صلى وراء النهر[١٤] ، ويقول فى وضع آخر أن سعيد بن عثمان هو أول من قطع النهر بجنده[١٥] ، يقول أيضا بأن يزيد بن معاوية ولى سلم بن زياد فصالحه أهل خوارزم على أربعمائة ألف ، وحملوها اليه وقطع النهر ومعه امرأته وكانت أول عربية عبر بها النهر ، على الرغم مما ذكر حول هذا الموضوع فان عبور النهر حسبما أشار اليه البلاذرى لا يعنى الفتح الحقيقى لهذه البلاد ، انما يبدأ مع بداية عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الا أن ما حصل من اقتحام خاقان الترك للنهر انما هو لمجابهة العرب مساعدة منه ليزدجرد ، لكنه لم يظفر بشىء فعاد أدراجه من حيث أتى .

ويهمنا الآن أن نلقى نظرة على أن المسلمين فيما بعد وخاصة على عصر الوليد بن عبد الملك بدءوا يعدون العدة لغزو البلاد الشرقية خاصة الثغور التركية فيما وراء النهر .

وقبل أن ندخل فى حديث الفتح المنظم على يد الفاتح قتيبة بن مســـلم الباهلى هناك ملاحظات لابد أن نوردها وهى :

الملاحظة الأولى ، التداخل والتعقيد ، وسببه أن هذه الفتوحات مرت فى أدوار مختلفة ، لم يكن هذا الفتح الذى بدأ الخطى الى غايته

---

(١٣) الطبرى : نفسه .

(١٤) البلاذرى : « فتوح البلدان » جـ ٥ ، ص ٤١٦ .

(١٥) نفسه ، ص ٤١٧ .

ثم لم يرجع عنها كما كان الحال فى فتح الشام أو فتح مصر مثلا وانما هى فتوح أدركتها الفتن الداخلية[١٦] .

والسبب الثانى أن هذه الفتوحات فى هذا الانسياح كانت كالموجة تكون لجتها فى موضع حيث يكون عظم الماء ، وتكون ذيولها وأطرافها فى موضع آخر بعيد ، فلم تتركز دائما فى مكان واحد ، ولكنها كانت تنساب فى أكثر من مكان[١٧] .

والسبب الثالث يرجع الى هذا البعد البعيد الذى اتساق اليه المسلمون فما من شك أن خطوط ما بينهم وبين مراكزهم التى انطلقوا منها استطالت وامتدت .

والسبب الآخر كثرة الانتقاض والارتداد ، ولم تكن هذه الانتقاضات شرا على المسلمين دائما ، ولكنها كانت خيرا لهم فى بعض الأحايين ، وكانوا يفيدون منها أن يجترءوا على فتح ما كانوا صالحوا عليه أو على فتح ما لم يتقدموا فى فتحه[١٨] .

قد ظل الحال على ذلك فى هذه البلاد ، ما بين انتقاض وارتداد الى أن قامت الدولة الأموية بعد الاضطرابات السياسية التى مر بها العالم الاسلامى على عهد عثمان بن عفان ، وما بعده حتى آل الحكم الى معاوية بن أبى سفيان ، الذى انتقل بخلافته الى دمشق موطدا العزم على برنامج اصلاحى داخلى وخارجى .

وقد كان مجال الفتوحات طوال عهد معاوية بن أبى سفيان موجها صوب البيزنطيين على جبهات الشام وافريقيا والبحر المتوسط ، واعتمدت

---

(١٦) شكرى فيصل ، ص ١٩٨ .

(١٧) نفسه .

(١٨) نفسه .

سياسة الأمويين فيما بعد معاوية الى ضرورة القضاء على الفتن الداخلية والحركات الدينية والسياسية فى البلاد ، وقد انقضى زمان يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم فى هذه المشاكل ، حتى نجـح عبد الملك بن مروان ٨٦/٩٦ هـ فى القضاء عليها نهائيا ، ونظم أمور دولته ثم رسم سياسته لاستكمال الفتوحات الخارجية لتوطيد الاسلام فى مختلف الجهات .

ففى الوقت الذى ارتقى فيه الوليد عرش الخلافة كان الحجاج ابن يوسف أميرا على العراق آنذاك ، وضمت اليه جميع ولايات المشرق، وكانت الثغور الشرقية معرضة دائما لهجرة الأتراك الطبيعية من آسيا الوسطى وغير مأمونة من غاراتهم ، ولهذا فكر الحجاج جديا فى وضع حد لهذه الغارات ، وبذلك تصبح هذه البلدان المجاورة لهم ، فولى قتيبة ابن مسلم الباهلى ولاية خراسان ، وطلب اليه فتح بلاد ما وراء النهر وفى هذا يقول بارتولد « أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسـيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان[١٩] .

وكان الحجاج قد ولى يوسف بن المهلب بن أبى صـفرة ولاية خراسان سنة ٨٠ هـ ، فغزا غزوات كثيرة فى بلاد الترك ، وفتح كثيرا من البلدان كما يقول البلاذرى[٢٠] ، وعلى الرغم من كل ما بذله المسلمون من جهود لفتح بلاد ما وراء النهر الا أن تقدمهم كان بطيئا ، ولم تتوطد أقدام المسلمين فى هذه المنطقة الا حينما ولى الحجاج قتيبة سـنة ٨٦ هـ[٢١] . فلما وصل الى مرو أعاد اليها الأمن والاستقرار ، واستعد لفتح

---

(١٩) بارتولد : « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى » ، ص ٣٧ .

(٢٠) البلاذرى : « فتوح البلدان » ج ٣ ، ص ٥٠٤ .

(٢١) أفاد قتيبة بن مسلم من جهود المهلب بن ابى صفرة وابنه يوسف ابن المهلب ، وافاد من غزوات من قبله ، غير انه كان نسيجا خاصـا من الرجال وكان عمله فى الفتوح ، ونجاحه فيها عملا فريدا حاول المؤرخون أن يتعرفوا أسبابه منها مساندة الحجاج له ، وتوحيده للقبائل العربية ، وتقربه من الغرب . انظر :

Gibb. «The Arab Conquest in Centeral Asia». pp. 29—30.

بلاد ما وراء النهر ، فلما سار اليها قتيبة سارع الأتراك من بخارى والصغد لانجاد اخوانهم[٢٢] .

والمعروف تاريخيا أن سكان حوض النهر ، وسكان الصغد ليسوا تركا فى الأصل فهم ايرانيون يتكلمون لغة ايرانية[٢٣] وفى فترة الفتوح هذه كان الأتراك قد وسعوا مملكتهم فى اتجاه الغرب على عهد قابغان قاغان الذى يدعوه الصينيون متشوى بد أن حرروها من السيطرة الصينية ، واستقر واحد منهم بوصفه طرخانا فى سمرقند عاصمة بلاد الصغد فيما وراء النهر على الضفة الجنوبية من الزرفشان « نهر الصغد ونهر الصغانيان » وعلى الضفاف السفلى من هذا النهر تقع بخارى حيث كانت احدى الأسر التركية الحاكمة تبسط سلطانها على رعية مختلطة فارسية وتركية[٢٤] .

وترجع الأسباب المباشرة ، والتى دعت قتيبة بن مسلم للاتجاه شرقا صوب خوارزم بعد استيلائه على الأراضى الفارسية الى ما رواه البلاذرى فهو يطلق على منطقة خوارزم اسم خارزم ، وقد شاركه مجموعة كبيرة من المؤرخين المسلمين الرأى على أن ملك هذه البلاد يوسف المدعو جنغان ، وقابغان[٢٥] كان ضعيفا ، لذلك غلبه أخوه خر زاد حتى أن الملك لم يكن له أمر ولا نهى فى البلاد[٢٦] ، حتى أن الطبرى

---

(٢٢) عبد العزيز اللميلم : « نفوذ الأتراك فى الخلافة العباسية » ، ص ١٨٢ .

(23) Gibb (H.A.R).
The Arab Conquest in Centeral Asia. p. I.

(٢٤) بروكلمان : « تاريخ الشعوب الاسلامية » جـ ١ ، ص ١٦٤—١٦٦ .

(٢٥) أبى محمد أحمد بن أعثم : « كتاب الفتوح » جـ ٧ ، ص ٢٣٥ .
وكان يطلق عليه فى المصادر الاسلامية قبعان ، قابعان ، قانمان .

(٢٦) نفسه .

يذكر أن هذا الأخ كان يحتال ويستولى على ممتلكات أخيه الملك وتعدى ذلك الى المتاع الشخصى كالجوارى والدواب ، بل وصل به الحال الى القيام باغتصاب النساء والفتيات « فكان اذا بلغه أن لأحد منهم بنتا أو أختا أو امرأة جميلة أرسل اليه فغصبه وخد ما شاء وحبس ما شاء لا يمتنع عليه أحد ولا يمنعه الملك »(٢٧) . لذلك استاء الملك من سلوك أخيه ، ورأى أن يكتب الى قتيبة يدعوه سرا ليسلم اليه البلاد ولم يطلع أحد من مرازبته ولا دهاقينه على ما كتب حتى أنه بعث بمفاتيح البلاد المصنوعة من الذهب « بل بذل له مائة ألف رأس ومتاعا سماه له فى كتابه على أن يدفع اليه أخاه ويملكه فى بلاده »(٢٨) .

ولا ينفى المؤرخون المسلمون عن قتيبة أنه كان يستعد لغزو هذه البلاد والأطراف ، وهذا كان ضمن الخطة التى رتبها مع الحجاج بن يوسف الثقفى . فيؤكد بن أعثم والطبرى على أن الوقت الذى وصل فيه رسول الملك قابغان كان نهاية الشتاء « فى وقت قد تهيأ فيه قتيبة للغزو »(٢٩) وقد اشترط على قتيبة فى حالة انتصاره أن يسلمه أخاه وجميع أعداءه داخل بلاده لينتقم منهم ، وفى نظير ذلك « سيسلمه مائة ألف رأس ومتاعا سماه له فى كتابه »(٣٠) .

عندئذ تجهز قتيبة لاستكمال الدور الذى بدأه فى بلاد المشرق ، واتخذ من هذه الظروف سببا مباشرا للتوجه بالحملة صوب منطقة خوارزم ، فأعلن على جنوده أنه يستعد لغزو بلاد الصغد ، حتى لا تتسرب أنباء الحملة الى الخوارزميين ، وفعلا تأكد أهل البلاد أن

---

(٢٧) الطبرى : « تاريخ الرسل » جـ ٨ ، ص ٨٣ ، ابن الأثير : «الكامل» جـ ٤ ، حوادث سنة ٩٣ هـ .

(٢٨) ابن أعثم : « كتاب الفتوح » ، ص ٢٣٥ .

(٢٩) البلاذرى : « فتوح البلدان » ، ص ٥١٨ .
الطبرى نفسه .

(٣٠) ابن أعثم ، ص ٢٣٥ .

قتيبة خرج الى الصغد فعلا حتى أن خر زاد «قال لأهل مملكته ان قتيبة يريد السفر وقد أمنتم من حربه وأن يغزوكم فى هذه السنة »[٣١]

استخلف قتيبة على مرو ثابتا الأعور مولى مسلم ، وقد نجح هذا المولى فى أن ينشر الخبر بين المرازبه والدهاقين من أهل البلاد بفكرة خروج قتيبة الى الصغد •

وكان لهذه الخطة أثرها فى ابراز عنصر المفاجأة للعدو اذ ما لبث أهل خوارزم أن وجدوا قتيبة وجيشه المسلم قد عبروا النهر ، ووصلوا الى مدينة هزار سب[٣٢] لذلك فزع أهل البلاد فزعا شديدا ، واقبلوا على الملك ختابغان ليرى رأيه فى هؤلاء المسلمين •

وهنا يختلف الرأى بين الطبرى وابن أعثم حول الموقف الذى وقفه أهل البلاد من قتيبة • فبينما يرى الطبرى أن المسلمين عندما وصلوا الى أبواب خوارزم قال ملكهم لأهله « ما ترون قالو نرى أن تقاتله »[٣٣] لكن الملك رفض قتاله بحجة أنه ليس له طاقة بحرب قتيبة وجيش المسلمين ، لما يعرفوه عنهم من ضروب الشجاعة والصبر على القتال وما أبلوه من انتصارات على الجبهة الشرقية وقال « قد عجز عنه من هو أقوى منا »[٣٤] • ورأى أن يبذل المال لقتيبة ، ويصرفه عن البلاد فوافق أهل البلاد على رأى الملك ، لذلك اجتمع قتيبة بالملك جنغان خوارزم شاه فتوجها الى مدينة الفيل « سمرقند »[٣٥] ثم نزلا

---

(٣١) ابن أعثم : « كتاب الفتوح » جـ ٧ ، ص ٢٣٦ .

(٣٢) الطبرى ، نفسه ، ابن الأثير ، جـ ٤ حوادث سنة ٩٣ هـ .

(٣٣) نفسه ، ابن الاثير : الكامل .

(٣٤) نفســـه .

(٣٥) مدائن خوارزم ثلاث مدائن يحاط بها فارقبن ، ومدينة الفيـــل أحصنها .

انظر البلاذرى : « فتوح البلدان » جـ ٣ ، ص ٥١٨ .